طرائف من العصر المملوكي :

النقـــــد الأدبي

للأســـتاذ محمود رزق سليم

النقد الأدبي كما نفهم في العصر الحديث ، هو النظر في النتاج الأدبي لأمة أو فرد ، لنرى مبلغ دلالته على الصدق ومقدار نطقه بالحق . تقلبه على وجوهه المتعددة تحريا لمظاهر الحسن فيه ، وتلمسا لمواضع النقص منه ، جاهدين في إبراز حسنه أو نقصه ، مع الإشارة إلى الحسن لم كان حسنا ، وإلى النقص لم كان نقصا . ومعنى ذلك تحليل الأدب وتعليله لفظا ونظما وفكرة ، وتوضيح المؤثرات التي تأثر بها ، لغوية أو جغرافية أو تاريخية أو اجتماعية أو شخصية أو نحوها ، مع توضيح آثارها فيه . ثم بيان مدى تأثير هذا الأدب بدوره في فرد آخر أو جماعة أخرى ، باعتباره عاملا جديداً من العوامل الحيوية المؤثرة في حياتهما . ثم موازنة هذا الأدب بغيره ومعرفة مدى الفوارق بينهما ، إبرازاً لقوة أحدهما أو ضعفه وسموه أو ضعته ، وصدقه أو مينه ، وتأثره بغيره أو عدم تأثره . والموازنة بذلك تعين على تشخيص الأدب وإبراز عناصره وإيضاح مميزاته وخصائصه .

والناقد الكامل يحتاج — لكماله — إلى سعة من العلم وإحاطته بالأدب ، ودراسة اجتماعية حاذقة وفلسفة نفسية عميقة . هذا إلى ذوق فني سليم ، واطلاع على ما كتبه أرباب النقد البياني ورجال البلاغة للاستئناس به والاسترشاد بقواعده ، حتى يكون بذلك كامل العدة واضح المحجة ، جامعاً لأصول النقد الصحيح من ذوق ومعرفة .

مثل هذا الناقد إذا جلس للحكم على الأدب نرجح أن يكون حكمه عادلا ونافعاً .

ونقول : نافعاً ، لأن النفع الجديد الذي يتضمنه حكمه هو مزية النقد الكبرى ، ومزية الناقدين ، وأبسط ما توصف به هذه المزية أنها تبصير حق بالأدب المنقود ، يضاعف أثره ، وتمهيد جميل للأدب الجديد يذلل سيره ، وإذا كان النقد في العرف الحديث أدبا وصفيا ، فهو أدب إنشائي من ناحية أخرى . وعلى الأقل من ناحية أنه يسن السبيل أمام الأدب الجديد ، ويرسم له الطريق الذي يسلكه ، ويهيئه — بزعمه — لبلوغ كماله . والنقاد — في هذا — يعبرون عن مزاج جيلهم وذوق معاصريهم وحاجة جمهورهم . ويجهد الأدباء كتابا وشعراء ، في تحري أذواق النقاد ، والتجانف عما يريبهم . فينضج أدبهم مطبوعا بطابع

القصة وصار يسمي نفسه دوبلتسكي !

وما هذه الخاتمة التي اختارتها لقصتها ؟ أتنصرف عن دوبلتسكي فتتزوج سميرنوف ؟ أتريد بذلك إغراءه وإخراجه من تردده ، أم أنها تؤثر عليه سميرنوف ؟ ومن يكون سميرنوف هذا ؟ أهو بويوف الذي تطارحه الحديث وتظهر له الود ، أم هو ذلك الضابط الشاب بوليفانوف ؟ وهل تعمل سوفيا على التقريب بينه وبين أختها ليزا ؟

ألا تحب سوفيا هيئته فهي لذلك غير واثقة من أنها تحبه ؟ يالها من حيرة ! لقد كتب في مذكراته في الثامن والعشرين من أغسطس سنة ١٨٦٢ بعد قراءة القصة بيومين يقول « أيها الوجه القبيح لا تحلم بالزواج . . إنك لست أهلاً لهذا . . وإن أهليتك لمن نوع آخر وإنه لكثير ما منحته منها »

وعلى الرغم من ذلك ذهب إلى الضيعة في اليوم التالي ، ولما رجع أثبت في مذكراته قوله « لا شيء من حب كما سلف ولا من غيرة حتى ولا من ندم ، ولكني لا أجد مثيلا لحالتي وذلك ما يجعلها حلوة . . كانت ليلة لذيذة وكانت العواطف رقيقة سارة إن بويوف في غاية الذكاء وفي غاية الرقة » وكتب في مساء اليوم التالي يقول « لست أغار قط من بويوف إذ يتحدث إلى سوفيا ولا أستطيع أن أصدق أن يكون ذلك حقيقة حالي . إنها كذلك تتكلم في حزن وهدوء ... أيها الأحمق إنك غير أهل لها ... لقد قضيت الليلة معهم ... لم أنم .. إنها هي أبداً ... »

(البقية في العدد القادم)

محمود الخفيف

نادهم . لهذا يقال إن النقاد هم موجهو الأدب فى الأمة وهداته . لا يحرر من ربقتهم إلا أديب معاصر ، ولكن لديه من المؤثرات الخاصة عدة عوامل جنحت به إلى أفق من الحرية . على أنه قد عيش غريباً بين قومه ، وقد لا يتأثرون بأدبه إلا بعد فترة ن الزمن .

هـذا هو الذى فهمناه فى العصر الحديث من معانى النقد لأدبى . فهل ولد النقد قبل اليوم مولداً على هذا القرار ؟ الحديث ن ذلك طويل يضطرنا إلى النظر فى اتجاهات النقد فى كل من عصور الأدبية المنصرمة ، وهذا مالم نقصده هنا الآن . وإنما صدنا أن نعرض فى إيجاز إلى الحديث عن النقد الأدبى فى عصر المملوكى .

غير أنه لا ريب فى أن النقد الأدبى ولد بمولد الأدب ، إذا اعينا أن قارئى الأدب أو سامعيه سواء أكانوا من الخاصة م العامة مولعون أبدا بالنقد والتعليق على كل مايقرءون أو يسمعون لو بكلمة عابرة ، أو نقدة طائرة ، أو تعليقة حائرة . وهكذا نستطيع نقول إن النقد قد ولد مع الأدب الجاهلى ، غير أنه كان نقداً طريا وفى نطاق ضيق وبين خليط من اعتبارات شتى ، ومرجعه لذوق الخاص ، وغير مقعد بقواعد ولا مرتبط بذوق عام ... م نضج النقد الأدبى بعض النضوج بمجىء الإسلام ، وأقبل الناس لى سماع الأدب والنظر فيه ، وكانت بالأمويين عناية فائقة بسماع شعر قديمه وحديثه ، والتعليق عليه ، وقياس شعر بشعر ، موازنة بيت ببيت ، حتى جاء العصر العباسى ، وأقبل القوم على لدرس والتصنيف والترجمة . ولقحت العقول بالترجمات ، وفاضت لمجالس بما ينشده الشعراء والرواة من محاسن الآداب العربية ، نشط النقد ، وتكون ما يشبه الذوق العام . وعنى بالدفاع عن لأساليب القرآنية وبيان ما فيها من أسرار التراكيب . فظهرت وادر العلوم البلاغية ثم اشتد أزرها وقوى أمرها وتجمعت حقائقها حتى تألفت علوما لها موضوعاتها وأبوابها وقواعدها . صنفت كتب فى النقد والموازنات اعتمدت فيها اعتمدت عليه ، لى الذوق الخاص ، وهكذا انتهى عصر العباسيين بعد أن خلف ى ميدانى النقد الأدبى والبيانى ذخيرة نفيسة . ولكن النقد — على كل حال — لم يبلغ ذلك المبلغ الذى رسمنا صورته فى أول المقال ، والذى يقتضيه منا العصر الحديث :

وبعد فما نصيب العصر المملوكى من هذا التراث ، وما الذى أضافه إليه ؟ أهم ما يجهنا من ذلك ، ذوق بديعى عام استحوذ على الأدباء والنقاد جميعاً . لم يعتمد على ما خلفه الأقدمون من قواعد فى النقد البيانى فحسب ، وإن كانت هذه القواعد من أهم دعائمه ومصادر إلهامه . وإن كان قد جمع كل أبواب البلاغة جديدها وقديمها تحت راية البديع .

ولقد كان للقاضى الفاضل عميد الأدباء فى العصر الأيوبى ، أثر بارز فى الكتابة والشعر فى العصر المملوكى . لأنه ابتدع للاسلوب طريقته البديعية الخاصة التى أساسها الإكثار من المحسنات وبخاصة السجع فقد التزمه ، والجناس والطباق ، مع المغالاة فى سوق التورية والاستخدام والإمعان فى التشبيه والاستعارة ، والتلميح إلى الحوادث ، والتوجيه بالمصطلح العلمى ، وتضمين المأثور والاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف ، إلى غير ذلك من محسنات وسمات . وهذه طريقة فى الأسلوب مبنية على ماسنه من قبله الكاتب الشهير ابن العميد (٣٠٠ هـ — ٣٦٠ هـ) وغيره من أدباء العراق . غير أن الفاضل غلا فى التزام ما استحسنوه وانقاد الأدباء من بعده — وبخاصة فى العصر المملوكى — إلى طريقته وتعصبوا لهـــا ، حتى تركزت فى أذواقهم وفى أذواق النقاد معا ، وأصبحت نهجاً متبعا وقاعدة مرعية بين قواعد النقد التى يزنون بها الآثار الأدبية الجديد منها والقديم على حد سواء .

وظهر شاعر مصر الكبير جمال الدين بن نباتة (٦٨٦ — ٧١٨ هـ) فنهج نهج القاضى الفاضل ، وتعصب لطريقته ؛ فكان بذلك زعيماً ثانياً للطريقة الفاضلية فى الشعر والكتابة . واتجهت عناية ابن نباتة إلى إجادة التورية والتضمين ، فأبدع فيهما أيما إبداع ، وأتى منهما بالعجب العجاب ، واتجهت كذلك إلى الجناس ؛ ولكن عنى بإخراجه مخرج التورية ، فأجاد وأطرب ، وأفاد وأعجب ؛ فكان بذلك وغيره ذا طريقة جديدة هى الطريقة النباتية ، وأصبح لها أتباع ومتعصبون هم جمهرة عظيمة من أدباء العصر المملوكى ونقاده ، وتركزت بدورها فى أذواقهم حتى صاغوا أساليبهم فى قالبها ، أو اتخذوا منها قواعد جديدة للنقد وزنوا بها وازنوا بين أدب وأدب ، وبين شعر وشعر . وفى مقدمة

المتعصبين لها والناقدين على أساس منها ومن الطريقة الفاضلية : شهاب الدين أبو الثناء محمود بن سليمان الحلبي (٧٢٥ هـ) صاحب كتاب « حسن التوسل إلى صناعة الترسل » . وتقي الدين ابن حجة الحموي (٨٣٧ هـ) صاحب كتاب « خزانة الأدب وغاية الأرب » . وهذا الكتاب أوسع نطاقاً من سابقه . وقد ألفه ابن حجة ليشرح فيه بديعيته ، وهي المنظومة التي مدح بها سيد المرسلين عليه السلام ، وضمن كل بيت من أبياتها شيئاً من البديع . وقد وازن فيه بينها وبين بديعيتي عز الدين الموصلي وصفي الدين الحلي موازنة أساسها البديع ، ذاكر اسم النوع البديعي واختلاف العلماء فيه ، وشواهد الأدباء عليه . وقد استطاع ابن حجة أن يخرج كثيراً عن النطاق العلمي الذي ضربه علماء البلاغة في أخريات العصر العباسي ، كالسكاكي مثلا . واستطاع أن يجعل من كتابه هذا معرضاً أدبياً ضافياً تألق فيه كثير من شعر العصر المملوكي ونثره ، ومع نقده نقداً هو مزاج من النقد الأدبي الصحيح الذي أساسه الذوق ، ومن النقد البياني الموروث الذي أساسه العلم ؛ مبيناً ، بين الفينة والفينة ، مذاهب الشواذ والخارجين على الطريقة النباتية من شعراء هذا العصر . ومن بينهم صلاح الدين الصفدي الذي جُن جنوناً بالجناس وأنواعه ، كما جن به الصاحب بن عباد من قبل ، وأكثر مما جن . وقد حمل ابن حجة على الصفدي وسفه ولوعه بالجناس مبيناً أن هذا المذهب يخالف مذهب ابن نباتة وتابعيه ، من العناية بالتورية واعتبارها أسمى ضروب البديع ، بل أجود أبواب البلاغة . وقد انساق الصفدي بدافع حب الجناس إلى وضع كتاب فيه بخاصة وسماه « جنان الجناس » ملأه أمثلة من الجناس . وقد نقده ابن حجة في كتابه « خزانة الأدب » نقداً مراً وأورد من نظمه عدة أمثلة ، وذكر أن جمال الدين بن نباتة لما قرأ عنوان الكتاب قرأه هكذا : « جنان الجناس » وجرى بين الرجلين بسبب ذلك ما يطول شرحه . وذكر أيضاً أن من بين ناقدي الصفدي الشيخ بدر الدين البشتكي الذي قال عن الصفدي بمناسبة نظمه هذا : « وإن من ذلك ميلغه من النظم لجدير أن يقعد مع صغار المتأدبين » . هذا إلى أن ابن حجة قد ألف كتاباً آخر في نقد الصفدي وتسفيه كتابيه « جنان الجناس » و « فض الختام » وهو « كشف اللثام » .

هذا كله يشعرنا بأن ابن حجة وغيره من نقاد العصر لم يتقيدوا بالقواعد البلاغية ولا بما وصل إليه النقد البياني من تقعيد بل حكموا في كثير مما نقدوه أذواقهم وقواعد نهجهم البديعي .

وهذا لا يمنعنا من الإشارة إلى أن هناك رجالا صرفوا جهودهم إلى النقد البياني وقواعده الموروثة عن العصر السابق ، فكانوا علماء أكثر منهم أدباء . وفي رأينا أنهم لم يأتوا من وراء هذه الجهود بجديد وما مؤلفاتهم إلا شروح أو مختصرات لمؤلفات السالفين من علماء البلاغة . وقد حظي كتاب « مفتاح العلوم » للسكاكي (٦٢٦ هـ) بنصيب كبير من هذه المؤلفات ، ومنها ماوضعه الجلال القزويني ، والجلال السيوطي ، وزكريا الأنصاري ، والبهاء السبكي . غير أننا لا نبالغ إذا قلنا إن هؤلاء لم يمثلوا العصر ولا ذوقه الأدبي ولا قواعده في النقد . أما الفريق الآخر فهم أدنى إلى هذا التمثيل وأقرب .

على أن النقد الأدبي — في الحق — كان أوسع نطاقاً مما وصفنا . وأكثر شغلا للقوم مما رسمنا ؛ إذ كانت له عوامل عدة أذكت ناره وأشعلت أواره . وأكثرت سعاره فضلا عن حب البديع والتسابق إلى ابتكار التوريات والتضمينات ، كانت هناك منافسات أدبية شديدة بين أدباء مصر وأدباء الشام ، ومنافسات أخرى بين شاعر وشاعر ، وكان من الناس من يتعصب لهذا أو يتحمس لذاك . وكانت هناك مباريات بين المتعاصرين من الشعراء ومساجلات ومعارضات . وكان كثير من وجوه الناس وأعيان الرؤساء يضرى هذه المعارضات حتى ولو لم تكن بين المتعاصرين وكان بعض الملوك والرؤساء ذوي بصر بالشعر ومكانه . وكان بالشعراء ولوع بالتضمين فولجوا إليه كل باب حتى تهادوا إلى السرقة عمداً أو دون عمد . كل هذه الأمور ترينا أن النقد الأدبي قد وجد الأسباب فدق الأبواب وولج الأعتاب وعاش بين القوم في أخفض جناح وأخصب مراح .

وبضيق المقام إذا ذهبنا نعدد الأمثال ونضربها . فلنكتف بالإشارة عن العبارة ، وبالتلميح عن التصريح فنقول .

روى المقريزي في خططه أن الملك الأشرف خليلا عاد في عام ٦٩٠ هـ من الشام بعد أن فتح عكا ، فلقيته القاهرة برجالها في

ـ عظيم ، وتقدم ابن المنبرى الشـاعر فأنشد قصيدة قال فى
ـها :

والديك وقف على قبريهما فكأننى بك قد نقلت إليهما

فتطير الأشرف من هذا البيت ونهض قائماً حانقاً وهو يقول :
ـجد هذا شيئاً يقوله سوى هذا البيت ! ؟

وروى تاج الدين السبكى فى طبقاته عن تاج الدين المراكشى ،
: دخلت عليه مرة وهو ينشد قول ابن تقى .

ـإذا مالت به سنة الكرى زحزحته شيئاً وكان معانق
ـدته عن أضلع تشـــتاقه كى لا ينام على وســـاد خافق

وقول الحكم بن عقال :

كان لابد من رقاد فأملى هاك عن وســـاد
، على خفقها هـــدوءاً كالطفل فى هزة المهـــاد

وهو ومن عنده يقولون إن قول الحكم أجدر بالصواب لأنه
يناسب المحب أن يبعد حبيبه . وينشدون قول صـلاح الدين
ـصفدى — أمتع الله ببقائه — فى ذلك رداً على ابن تقى :

ـدته من بعد ما زحزحته ما أنت عند ذوى الغرام بعاشق
ـشئت قل أبعدت عنه أضالعى ليكون فعل السهام الوامق
قل فبات على اضطراب جـــوانحى
كالطفـل مضطجعاً بمـــهد خافق

قلت — أى السبكى — « إن ابن تقى وإن ساء لفظاً حيث
، « أبعدته » فقد أحسن معنى عـلأنه وصف أضلعه بالخفقان
لاضطراب الزائد الذى لا يستطيع الحبيب النوم معه عليهـا
ـم مصلحته على مصلحته وترك ما يريد لما يريد ، وأبعده عمـا
ـقه ، ولو قال « أبعدت عنه أضلعاً تشتاقه » لأحسن لفظاً كما
ـن معنى . وأما الحكم فإنه وصف خفقانه بالهدوء ، وهو
ـقان يسير يشبه اضطراب سرير الطفل . وهكذا نقص ، فوقع
ـراع فى ذلك . وأرسلوا إلى القاضى شهاب الدين أحمد بن فضل
ـمرى — رحمه الله — صورة سؤال عن الرجلين « ابن تقى »
« الحكم » أيهما المصيب . فـكتب : قول ابن تقى عليه مأخذ
ـلكنه قول المحب الصادق .
ـكفيه فى صدق المحبة قوله كى لا ينام على وساد خافق

ما الحب إلا ما يهد له الحشا ويهد أيسره فؤاد العاشق الخ

هذا مثل من أمثلة المجالس الأدبية ومجالس النقد ، وفى الطبقات
وغيره أشباه له كثيرة .

أما السرقات الأدبية فقد زاد خطرها وتطاير شررها فى
هذا العصر . ومن شعرائه من سطا على شعر غيره بدعوى التضمين
قال مجير الدين بن تميم :

أطالع كل ديوان أراه ولم أزجر عن التضمين طيرى
أضمن كل بيت فيه معنى فشعرى نصفه من شعر غيرى

واشتهرت سرقات ابن نباتة من علاء الدين الوداعى ، كما
اشتهرت سرقات صلاح الدين الصـفدى من الجمال بن نباتة ولما
وقف ابن نباته على سـرقاته ألف فى ذلك كتاباً سمـاه « خبز
الشعير » لأنه مأكول مذموم ونقد فيه الصفدى وأورد كثيراً
مما سرقه — وقد تتبع ابن حجة فى كتبه عشرات من سرقات
الصفدى وابن نباتة وغيرهما . ومن ذلك قول ابن نباتة :

ومولع بفـخاخ يمـــدها وشباك
قالت لى العين ماذا يصيد قلت كراكى

فقال الصفدى :

أغار على سرح الكرى عندى ما رمى الـ
ـكراكى غزال للبـــدور يحاكى
فقلت ارجعى يا عين عن ورد حسنه
ألم تنظريه كـيف صـاد كراكى

على أن ابن حجة هذا قد تعقبه أديب آخر هو شمس الدين
النواجى فنقده فى كتاب سماه « الحجة فى سرقات ابن حجة »
وللبدر الدمامينى كتاب آخر نقد فيه شرح الصـفدى للامية
العجم واسمه « نزول الغيث »

وبعد فما تقدم نشعر بمقدار عناية أدباء هـذا العصر بنقد
الأدب ، وبيان زائفه من طارفه وهـذا دليل على الحيوية الأدبية
واليقظة الفـكرية ، ولا يقدح فى هـذا اختلاف أذواقهم عن
أذواقنا فلـكل أهل عصر فى آدابه ونقده اتجاه وقواعد وأذواق

محمود رزق سليم
مدرس الأدب بكلية اللغة العربية